افتتاحيّة العدد:

الجوع إلى التّقدير

The thirst to appreciation

د. عماد عبد اللطيف

جامعة قطر

emad.abdulatif@googlemail.com

الجوع إلى التّقدير

د. عماد عبد اللطيف

التّقدير علامة إعجاب رمزي، قد يأخذ شكل كلمة تشجيع وثناء، أو نظرة رضا وقبول، أو ابتسامة إعجاب، أو تصفيقة يد، أو رسالة شكر، أو باقة ورد، أو اعترافا بالأثر، أو غيرها. نعبِّر عن التّقدير كذلك في شكل مكافآت مادية قد تكون حيازة مكانة مثل شهادات التّقدير، أو العلاوات، أو المكافآت، أو الجوائز، أو غيرها من أشكال الدّعم والمكافأة.

التّقدير ثمين جدًا؛ فكثير من جهود البشر تحفّزها الرّغبة في الحصول على تقدير مَن حولهم. في سنوات طفولتنا، نطارد آباءنا وأمهاتنا وأساتذتنا كي نحصل منهم على علامة تقدير، نعرض عليهم ما ننجزه على أمل اقتناص كلمة تشجيع وإعجاب، أو علامة عشرة على عشرة، إلى جوارها نجمة خماسية حمراء. تعرف أمّهاتنا، وآباؤنا، ومدرّساتِنا قيمة شغفنا بالتّقدير، فيحولنه إلى أداة تحفيز، وتربية، وتشجيع، وتهذيب.

يكبر الطفل، ويتعلّم كيف يُخفي حاجته إلى التّقدير مثلما يتعلّم كيف يصبر على حاجته إلى الطّعام. لكن الصّبر على الحاجة لا يمحوها. وعلى مدار حياتنا، نظلّ في حاجة إلى كلمة تقدير من أفراد عائلتنا، أو أصحابنا، أو زملائنا، أو مؤسّساتنا، أو حتى من شخص غريب.

يمكن ردّ الكثير من الجهود التي يقوم بها الشخص البالغ في حياته اليومية إلى الرغبة في الحصول على تقدير. فكثير من الأعمال التي يقوم بها المرء لا يمليها عليه الشّعور بالواجب فحسب، بل تحرّكها رغبة الحصول على اعتراف بالتميّز، أو الإتقان، أو الإبداع، أو الجدارة. فالابتكار في العمل، والسّعي المتواصل للتّفوق والتّجاوز، والحرص على التّميز تحرّكها غالبًا رغبة حيازة التّقدير أكثر من الحرص على الانضباط والالتزام. حتّى بعض ما نقوم به ملزَمين، لا يخلو مبعثه من رغبة خفيَّة في أن نحوز تقديرًا ومثوبة؛ لأننا نقوم بما يتعيّن علينا القيام به بأمانة، وجدارة، وإتقان، في زمن قد تعز فيه الأمانة، والجدارة، والإتقان.

تشوهات التّقدير:

تبدو الرغبة في التّقدير شديدة الأهمية في تطور البشرية، فالكثير من الأعمال العظيمة أُنتجت بقوة دفع هذه الرّغبة. لذا فإن المجتمعات التي تبتغي توظيف طاقات أبنائها على أفضل نحو، تمنحهم تقديرًا مشبِعًا على مدار حياتهم. والشّخص الذي يُدرِك أنه سيكافَأ دومًا على حسن فعله بعدالة ونزاهة، يستلذّ كلّ تعب مُقدَّر. والمجتمع يحفز رغبة مواطنيه في الحصول على التّقدير كي يدفعهم نحو مزيد من الترقّي في الحياة.

على العكس من ذلك، هناك مجتمعات تعاني من اختلال سياسات التّقدير، على نحو ما يظهر في منح التّقدير لمن لا يستحق، وحرمان من يستحق، وفي استعمال التّقدير أداةً لإفساد الأفراد والمجتمعات على حدّ سواء.

اختلال التّقدير شائع في المجتمعات التي يشيع فيها الظّلم الاجتماعيّ والفساد، وتغيب عنها الشّفافيّة، والمسئوليّة، والنّزاهة. وللأسف، ومعظم بلداننا العربية تعاني أشكالا مختلفة من هذه الأمراض المجتمعية. فذهاب التّقدير إلى غير مستحقّه سرطان يضرب في أجساد العالم العربي من المحيط إلى الخليج، إلاّ في ما ندر. فالكفاءة، والتّفاني، والنّزاهة، والإبداع ليست وحدها معايير شروط حيازة المُكافَأة، والتّقدير، بل تسبقها وتغلبها في أحيان أخرى معايير منحرفة مثل الولاء الشخصيّ، والشّلليّة، والمنفعة الخاصّة، والرّشاوى، والتربيطات، وغيرها. كما أنّ الاستغلال السياسيّ والإيديولوجيّ والحزبيّ للتقدير شائع في معظم عالمنا العربي، إذ تُستغَل المكافآت والجوائز والأوسمة والشّهادات الفخريّة وغيرها من أشكال التّقدير بهدف تحقيق أغراض سياسية أو إيديولوجية. وإذا كان منح التّقدير لغير مستحقّه انتهاكًا صارخًا للنزاهة، فإنّ تحويل التّقدير إلى أداة إفساد للذّمم والضمائر هو أقصى أشكال الاستغلال.

التّقدير والحظيرة:

إن حاجة الإنسان إلى تقدير الآخرين ليست أقل من حاجته إلى الطّعام. الطّعام إشباع للجسد، والتّقدير إشباع للذّات والروح. وكما يموت جسد الإنسان جوعًا للطّعام، قد تموت روحه جوعًا إلى التّقدير. وكما قد يَقبل بعض البشر التخلّي عن الكرامة للحصول على ما يسدّ جوعهم للطعام، قد يقبل بشر آخرون التخلي عن المبادئ، والمثل العليا، للحصول على ما يسدّ جوعهم للتّقدير.

قبل نحو خمسين عامًا كتب القاصّ السوري زكريا تامر قصّة رائعة بعنوان "النمور في اليوم العاشر"، تحكي عن عملية ترويض نمر متوحّش بواسطة استغلال جوعه إلى الطعام. في مفتتح القصّة يقول المروّض مخاطبًا تلاميذه:

"إذا أردتم حقّا أن تتعلموا مهنتي، مهنة الترويض، عليكم ألاّ تنسوا في أيّ لحظة أن معدة خصمكم هدفكم الأول، وسترون أنها مهنة صعبة وسهلة في آن واحد. انظروا الآن إلى هذا النمر. إنّه نمر شرس متعجرف، شديد الفخر بحريته وقوّته وبطشه، ولكنه سيتغيّر، ويصبح وديعًا ولطيفًا ومطيعًا كطفل صغير. فراقبوا ما سيجري بين من يملك الطعام وبين من لا يملكه، وتعلَّموا". وفي نهاية القصّة ينجح المروّض الماكر في ترويض النمر البريّ، ويسلبه كلّ كبريائه مستغلا جوعه إلى الطعام.

على نحو مشابه، يتعرّض الكثير من البشر، لا سيّما الفئات الأكثر تأثيرًا في المجتمع، لمحاولات ترويض متواصلة، بهدف السّيطرة عليهم. يشتمل عَتَاد الترويض على أسلحة واستراتيجيات شتّى، لعلّ أكثرها خطورة التّرويض في مقابل الحصول على التّقدير. وهو السّلاح الأكثر شيوعًا في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، ويعادل حرفيًا سلاح الطّاعة في مقابل الطعام الذي وصفه ببراعة زكريا تامر في قصة "النمور في اليوم العاشر".

إذا كان التّقدير مهمّا للإنسان العادي، فإنّه شديد الأهمية للفئات الأكثر إبداعًا في المجتمع. وإذا كان استغلال جوع الإنسان العادي إلى التّقدير لإفساد ذمته خطرا، فإنّ إفساد ضمائر مبدعي المجتمع مدمّر.

في تسعينيات القرن الماضي، ظهر تعبير يصف على نحو دقيق استخدام أشكال التّقدير لإفساد المبدعين والمثقفين في بعض المجتمعات العربية، هو "حظيرة المثقفين". استُعمِل المصطلح ليصف عملية ترويض ضمائر المثقفين والمبدعين كي يصطفوا خلف سلطة مستبدة فاسدة، ويدافعوا عن مصالحها وبقائها. كان تعبير "الدخول إلى الحظيرة" يصف اكتمال عملية التّرويض، وهو ما يتجلّى في التخلّي الطّوعيّ عن الوظيفة الأساسية للمثقف بوصفه ضمير المجتمع، وعقله الناقد، وصوته الأمين في مواجهة انحرافات السلطة، وتغوّلها، وتحوله -على النقيض من ذلك- إلى لسان للاستبداد، ويد له، في معارك الأنظمة ضدّ شعوبها.

كانت الأدوات المحفِّزة على الدّخول إلى الحظيرة ذات صلة مباشرة بالتّطلّعات المادّية، والجوع إلى التّقدير. فالحصول على مناصب في مؤسّسات السّلطة، والنّفاذ إلى وسائل إعلامها، ومنافذ نشرها، وجوائزها، وسفرياتها، وعطاياها، أصبحت مرتبطة بالدخول إلى "حظائرها". وكان على كلّ مثقّف، ومبدع، وأكاديميّ، وخبير أن يختار أحد طريقين؛ أن ينحاز إلى السلطة، وينتظر الثّمن المأمول، أو أن يتمسّك بمبادئه، وضميره، ومهنيّته، ويكون على يسار السلطة، زاهدًا في عطاياها ومكافآتها. في ظلّ هذه المعادلة المفزعة، ذهبت أكبر أشكال التّقدير لأشخاص بلا إسهام حقيقيّ. وتُرِك الأكثر موهبة، وإبداعًا، وتأثيرًا خارج دائرة الانتشار والتّقدير معًا، إلا في ما ندر.

في العقدين الماضيين، لم يعُد الاستغلال السياسي للجوع إلى التّقدير تجارة رابحة محليًا فحسب، بل أصبح صناعة إقليميّة مؤثّرة. لقد أدركتْ بعض الدول التي لديها وفرة مالية أنّ باستطاعتها السّيطرة على النّخب العربية بواسطة استغلال الجوع إلى التّقدير. فقامت بإنشاء العديد من الجوائز والفعاليّات الإبداعية والثقافية والأكاديمية الدّورية في كلّ مجال إبداعيّ تقريبًا، وأُسِّست جمعيات مهنيّة، ودور نشر، وروابط، وجمعيات، وتجمعات، حاضنة للمشتغلين في كافة مجالات الإبداع الإنساني تقريبًا. وفي خطّة تبدو منظمة، وشاملة، وناجحة -إلى حدّ كبير- تمكنتْ هذه الأدوات من السيطرة الحريرية على عقول النّخب العربيّة بواسطة تقييد أفق حركتها بما لا يتعارض مع تصوّراتهم لما تقبله أو ترفضه "السّلطة المانحة".

في ظلّ هذا التحكّم غير المرئيّ، أصبح المبدعون يكيّفون أعمالهم بما يتلاءم مع متطلبات "المانحين". ويكمن الخطر الحقيقيّ في أنّ الأنظمة التي تملك موائد التّقدير، تتبنّى أحيانًا سياسات لا يمكن الدّفاع عنها، أو حتّى الصمت عن فضح مخاطرها، لكلّ ذي ضمير. فدعم الاستبداد، والتّحالف مع أعداء الوطن العربي، الذين يحتلّون أرضًا عربية، ليست قضايا خلافيّة، تحتمل تعدد وجهات النّظر أو الآراء. إنها قضايا مصيريّة تتطلّب من كل مثقّف ومبدع حرّ أن يتّخذ موقفًا واضحًا إزاءها. والصّمت عن إدانة هذه السّياسات المدمّرة يؤدّي إلى إفساد جليّ للذّمم والأخلاق. والرّاغب في الحصول على جائزة، أو دعوة، أو درع تقدير، أو منصب، أو وظيفة من هذه الكيانات المانحة يعلم أنّ عليه أن يسكت عمًّا لا يمكن السّكوت عليه، إن لم يكن عليه في بعض الأحيان أن يمتدح سياسات شديدة الإضرار بوطنه نفسه، إن هو أراد الحصول على العطاء الوفير.

يرجع جزء من نجاح سياسات الحظيرة الإقليمية إلى الظروف الصّعبة التي يعيشها معظم المثقّفين، والمبدعين، والأكاديميين العرب في بلدانهم، وتطلّعهم إلى تحسين هذه الظروف. فالظروف الاقتصادية الصّعبة التي تعيشها مراكز إنتاج الإبداع العربي (مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد المغرب العربي) تجعل أغلبيتهم يتطلّعون إلى الحصول على جائزة أو مكانة أو دعوة أو وظيفة في واحدة من الدول الغنية التي يقوم بعضُها بدور خطير في السّيطرة على عقول الأمّة العربية كاملة بواسطة استغلال هذا التطلّع في دعم قوى الاحتلال والهيمنة العالمية بشكل غير مسبوق.

يترتّب على هذا النّجاح نتائج قد تكون كارثية على النّخب العربيّة في المستقبل القريب. أوّلها مخاطر افتقاد هذه النّخب لاستقلالها ونزاهتها الفكريّة، وتحوّلها إلى أداة في خدمة كيانات استعماريّة، لا تسعى فقط لإحكام قبضتها على أراضٍ عربية محتلّة، بل تتجاوز ذلك إلى القضاء على أية إمكانيّة لنهضة البلدان العربيّة نفسها. ويؤدّي هذا إلى دائرة مفرغة من استمرار التّراجع الحضاريّ العربيّ. فالنّخبة هم عقل الأمّة وضميرُها، وإذا عملوا، بوعي أو دون وعي، على خدمة مصالح الاستبداد والاحتلال القديم منه والجديد،

فإنّهم يُضيعون على مجتمعهم فرص التّطوّر والنهوض، ويعينون أعداءه على شلّ عقله وحركته بواسطة ترسيخ سياسات التبعيّة والسيطرة.

الخطر الثاني يرجع إلى الآليات التي قد يستعملها رعاة الحظيرة للقضاء على أيّة فعالية للنّخب العربيّة. فهذه الآليات بعضها شديد الخطورة على مستقبل الأمة لأنها تدمّر نسق القيم الذي يحافظ على التطور والتجدّد. فمنح التّقدير لأعمال رديئة يغير معايير ما هو حقيق بالتّقدير. وعلى سبيل المثال، فإنّ حصول رواية -يجمع النقاد على أنّها رديئة على المستوى الفنّيّ- على جائزة روائية كبرى -لأنّها تتبنّى منظورًا استعماريًّا يدعمه رعاة الجائزة ومانحوها- يؤدّي إلى إفساد معيار القيمة. إذ تكتسب أعمال رديئة قيمة رمزيّة كبيرة، وتصبح بدورها مثالا يُحتذى من الرّاغبين في الوصول إلى النتيجة نفسها. وتكون النّتائج أكثر كارثيّة حين تهيمن قيم الرّداءة على مؤسسات شديدة الأهمّيّة في المجتمع مثل السينما والإعلام والجامعة. إذ تؤدّي مكافأة الرداءة إلى تحوّلها إلى المثال المحتذى، وتتوارى الأعمال الأصيلة المبدعة التي هي نتاج تفانٍ، وإخلاص، وعكوف.

يؤدي انحراف معايير التّقدير إلى تشوهات هائلة في النّخب العربيّة في البلدان الفقيرة. فإدراك المبدع أنّ الحصول على تقدير مشبع معنويًا وماديًا متوقّف على درجة توافق أفعاله وأقواله وكتاباته مع ما تتوقّعه الجهة المانحة يؤدّي إلى دفع الطامحين إلى وضع متطلبات الجهات المانحة نصب أعينهم، على حساب النّزاهة، والمهنيّة والمبدأ، والمصلحة العامّة.

الطريق البديل:

كيف السبيل إلى مقاومة مخاطر التّقدير المشوه؟ تبدو الإجابة صعبة إلى حدّ كبير. فالأمل في تغير الأحوال المعيشيّة في بلدان الإنتاج المعرفيّ والإبداعيّ بما يضمن درجة أكبر من استقلالية أبنائها يبدو أمرًا بعيد المنال. وذلك لأسباب عدَّة ليس هذا مجال شرحها. والرّهان على حدوث تحوّل في موقف مانحي التّقدير المحلّيّ والإقليميّ باتّجاه مزيد من النّزاهة والشّفافيّة والحياد يبدو غير محتمل أيضًا. فمعظم مظاهر التّقدير العربية تُستعمل بوصفها أدوات سيطرة، وتطويع، واستقطاب، وموالاة. وهي، من ثمَّ، ذات أهمية كبيرة للأنظمة التي تنفق عليها، بما يدفعها إلى التمسّك بها.

على أي شيء نعوِّل إذن في المقاومة المنشودة لتشوّهات التّقدير؟ أظن أن بإمكاننا التّعويل على ثلاثة أمور:

الأول: تعزيز الصلابة الذاتية في مواجهة الإخضاع:

يتفاوت البشر في قدرتهم على مقاومة الظّروف الباعثة على التخلّي عن نسق المبادئ والقيم الذي يبني صورتهم المثالية عن أنفسهم. وهناك عوامل متنوعة تؤثّر في درجة هذه الصّلابة، وقابليتها للاستمرار. العامل الأهمّ فيها هو مدى قوى القناعات الذاتية للمبدع، والحدود التي يضعها لإمكانيّة التفاوض بشأنها. وكلّما آمن المبدع أنّ القيمة الحقيقية لعمله تكمن في اتّساقه مع حزمة المبادئ والقيم المهنية والإنسانّية الفاضلة، كان حرصه على التمسّك بهذه المبادئ والقيم أعلى. بالطّبع فإنّ الظروف المادية قد تُجبر المبدع على عمل بعض المواءمات، لكنّ الصّلابة الذاتية في مواجهة الإخضاع تحول دون تحوّل هذه المواءمات إلى استسلام تامّ.

الثاني: تثمين أشكال التّقدير المعنويّة:

في وقت مبكّر من حياتي الأكاديمية، قال لي العالم المتمكّن د. سامي سليمان: "كلمة تقدير واحدة من عالم نزيه تكفيني زادًا للعكوف على العمل مدّة عام كامل". هذه العبارة الموجزة وجَّهت حياتي الأكاديميّة طوال العقدين الماضيين، وأظنّها ستظلّ فاعلة حتّى الرحيل. إنّ الجوع إلى التّقدير حاجة دائمة، وككلّ الحاجات لا يجب على المرء تطوير استراتيجيّات لتقليل تأثير عدم إشباعها، بل عليه بالأساس أن يطوّر أدوات فعّالة لتحقيق إشباع رشيد لها. والتّقدير المعنوي من أشخاص يتّسمون بالكفاءة والنّزاهة والموضوعيّة هو الأجدر بأن يكون الإشباع الأكمل للمبدعين. ومن ثمَّ، يتعيّن على كل مبدع ألا يبخل في تقديم التّقدير المعنويّ لمن يستحقونه، وأن يحتفي بالتّقدير المعنويّ المقدم إليه، بوصفه زادًا حقًا لمواصلة العمل.

الثّالث: تدشين منصات تقدير مستقلة

يحتاج العالم العربي في وقتنا الراهن إلى منصّات تقدير نزيهة مستقلّة، تحتفي بالأعمال الأكثر أصالة وإبداعًا، وتكون بديلا معتبرًا للتّقدير المشوّه. ليس من الضروريّ أن تمنح هذه المنصّات جوائز ماليّة ضخمة. يكفيها بناء سمعة معتبرة بواسطة مراكمة ممارسات منح نزيهة وموضوعيّة. يمكن لهذه الجوائز أن تكون تحت مظلّة مؤسّسات علمية أو فنّية مثل الجامعات والمعاهد ومراكز الفنون، والجمعيات الأدبية والفنية، والروابط العلمية، والمنظمات الأهلية غير المسيَّسة، والرعاة غير الموجّهين سواء أكانوا شركات أم أفراد أم مؤسسات تسعى فعلا لتقديم أشكال من التّقدير النزيه. مثل هذه البدائل يمكنها ترك أثر هائل في المعرفة والفن والأدب العربي.